إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

عامل الناس بأخلاقك
لا بأخلاقهم
قال الشاعر :
"كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً ..
بالطوب يرمى فيلقي أطيب الثمر"

الحياء
الأمانة
الضمير
الصدق
الكرامة

إذا أصيب القوم في
أخلاقهم ... فأقم عليهم
مأتماً وعويلاً.
[أحمد شوقي]

مقدمة

الإسلام دين الأخلاق، فلم يُعرف عن دين أو نظام أنه اهتمّ بالأخلاق مثلما عرف عن الإسلام، وما من ميّزة تميز الإسلام بها كما تميّز بالأخلاق. وتميزت الأمة الإسلاميّة بالأخلاق، وليس أدلّ على ذلك من أنّ أكثر من دخل في الإسلام قديماً، خاصة في شرق جنوب آسيا، وهي بقعة يقطنها معظم المسلمين اليوم – إنما دخل فيه بسبب أخلاق التجار والجنود المسلمين الفاتحين.

سئل الخوارزمي عالم الرياضيات عن الإنسان فأجاب :

اذا كان الانسان ذو اخلاق فهو = 1

وإذا كان الإنسان ذا جمال فأضف إلى الواحد صفرًا = 10

وإذا كان ذا مال أيضًا فأضف صفرًا آخر = 100

وإذا كان ذا حسب ونسب فأضف صفرًا آخر = 1000

فإذا ذهب العدد واحد وهو الأخلاق ذهبت قيمة الانسان وبقيت الأصفار .

أولاً: مفهوم الأخلاق

الأخلاق هي:

الصفات النفسيّة والسلوكيّة للإنسان القابلة للمدح أو للذم.

فالصفات النفسية المحمودة مثل: حبّ الخير للآخرين وإحسان الظن بالناس.

والصفات السلوكية المحمودة مثل: الصدق والبر والوفاء بالعهود، وقل عكس ذلك في الصفات النفسية والسلوكيّة المذمومة.

وقيد القابلة للمدح أو الذم: يفيد تمييز الأخلاق عن الصفات والدوافع الغريزية، مثل الأكل عند الجوع، والخوف عند وجود موجباته، فإنّ ذلك كلّه ليس ممّا يحمد أو يذم، بخلاف الكذب أو الصدق.

أفكّر: ما العلاقة بين الصفات النفسيّة والسلوكيّات الخارجة عن الإنسان؟

ثانياً: أهمية الأخلاق في الإسلام

الأخلاق ضرورة حتميّة لقيام أي مجتمع وتقدمه، ولنتخيل مجتمعاً يسوده الكذب مثلاً، أو خيانة الأمانة، كيف يمكن أن تكون علاقات أفراده بعضهم ببعض؟ وهل يمكن تصور تعاملهم وتعايشهم أصلاً؟ ولذلك اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً كبيراً، ومن مظاهر هذا الاهتمام:

1. اقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد
2. جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ ومن أهم غايات بعثته.
3. جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

١- اقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد

١- رفع الله الأخلاق إلى منزلة تقارب منزلة التوحيد، كما في قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الإسراء: ٢٣

٢- وجعل الدعوة إلى مكارم الأخلاق، جوهر الرسالات السماوية، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد: ٢٥

قال تعالى:

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

٢- جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ ومن أهمّ غايات بعثته

١- كان النبي ﷺ الكريم متميزاً بأخلاقه الكريمة قبل البعثة، حتى عُرِفَ بين الناس بـِ (الصادق الأمين)

وهذه خديجة – رضي الله عنها- تصف لنا أخلاق النبي ﷺ قبل الإسلام، فتخاطبه مواسية ومهدئة: (كلا والله، ما يُخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرحم، وتحمِلُ الكلَّ، وتُكسِبُ المعدوم، وتُقرِي الضيف، وتُعِين على نوائب الحق).

ومعنى تَحمِل الكلَّ: أي تتحمَّل أثقال الفقراء والضعفاء والأيتام بالإنفاق عليهم وإعانتهم بالمال، **أما تكسب المعدوم فتعني:** أنك تتبرَّع بالمال لمن لا يجده، **وتَقري الضيف معناها:** أنك تُكرم ضيوفك، **وأما معنى تُعين على نوائب الحق:** أي تُعين الناس فيما يصيبهم من خير أو شر.

وهكذا امتاز النبي ﷺ بأخلاقه، حتى إنّ الله تعالى لم يمدحه بكثرة الصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك مما عُرِفَ به، وإنما مدحه بأخلاقه الكريمة، فقال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

٢- وهذا يدل على أنّ حسن خلقه ﷺ كان له الدور الأكبر في منزلته العظيمة التي بلغها عند الله تعالى، ومن أهم أسباب اصطفائه نبياً، ولا عجب، فجوهر الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٣- جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

كثرت نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية التي تبيّن عظيم ثواب الأخلاق، وتجعل المتصفين بها أقرب الناس منزلاً من النبي ﷺ يوم القيامة، ومن ذلك:

- **قوله تعالى:** ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٥

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً، وكان يقول: إنّ من خِياركم أحسنَكم أخلاقاً).

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

هل يمكن لسريع الغضب أن يُصبح حليماً وللبخيل أن يغدو كريماً؟ وفي المقابل هل يمكن أن يصبح الحليم حادّ المزاج؟ وأن يصبح الكريم بخيلاً؟ أم أنّ الله تعالى خلق الناس على سجايا مختلفة لا تتغيّر؟ وطَبَعَهم بطباعٍ متفاوتة لا تتبدّل؟

والجواب: أنَّ هناك عاملين رئيسين يؤثران في أخلاق الإنسان:

١- عامل خَلقي: طبع الله تعالى الإنسان عليه.

٣- وعامل اكتسابي: يعود إلى البيئة التي ينشأ فيها المرء، وإلى ما يبذله كل إنسان من جهد في تغيير أخلاقه.

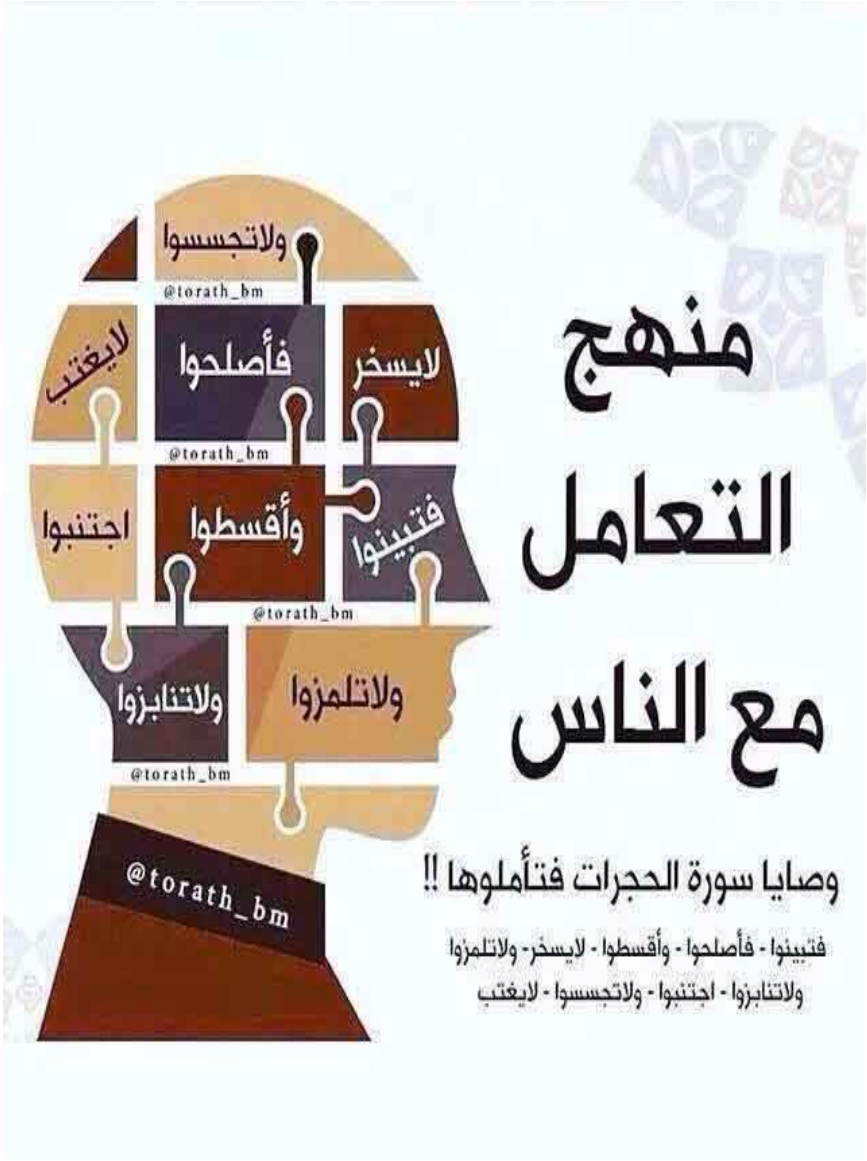

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

فالله تعالى خلق الناس متفاوتين في ميولهم واستعداداتهم وطباعهم، وهذا ملحوظ بوضوح، ومنذ الصغر:

١- فبعض الأطفال مثلاً، تتضح عليهم سمات الهدوء والوداعة،

٢- وبعضهم تبرز فيه الحدة وضيق المزاج وشدة الانفعال والصراخ،

٣- وبعض الأطفال يميلون أكثر إلى مساعدة الآخرين، بينما يميل آخرون أكثر إلى الاستئثار، وربما إلى شيء من العدوانيّة.

ولذلك وردت نصوص شرعيّة تفيد بأنّ الإنسان يُخلق مطبوعاً على أخلاق معيّنة، ومن ذلك:

وفي رواية: (قال: يا رسول الله أشيءٌ جُبِلْتُ عليه أم شيء حدث لي؟ قال رسول الله ﷺ : بل شيء جُبِلْتُ عليه).

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

لكـــن هـــذه الميـــول والاســتعدادات، إنّمــا هــي بمثابة البذرة:

- تبقـــى مســـتكنة: إذا لم تُعهّد بالعناية ولم تتوافر لها الظروف الملائمة.
- وتظهـــر وتنمـــو: إذا وجـــدت إرادة وظـــروف لتنميتها.

ســواء أكانــت فــي اتّجــاه الخير أم في اتجاه الشرّ.

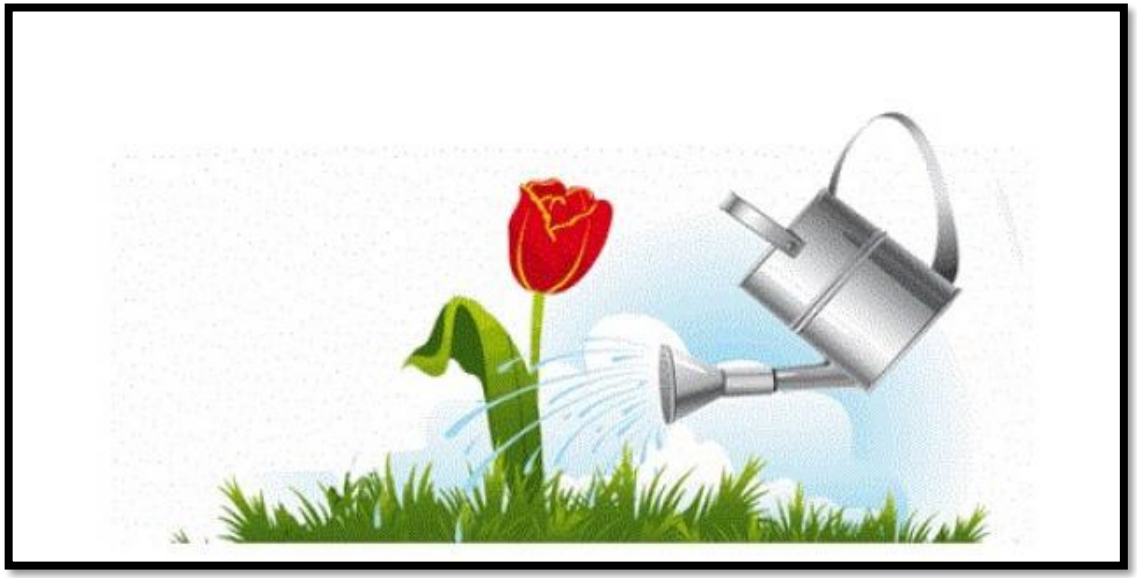

ولذلك :

١- وردت نصوص شرعية تفيد بأنّ الأخلاق تُكتسب، وأنّ الإنسـان هـو مـن يزكّـي نفسـه ويربيهـا علـى الأخـلاق الفاضلة، أو يهوي بها إلى حضيض الأخلاق السيئة.

٢- ومن هنا أيضاً كانت الأخلاق الحسنة سبباً للمدح وعلوّ الدرجات، بينما كانت الأخلاق السيئة سبباً للذم ونزول الدركات.

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

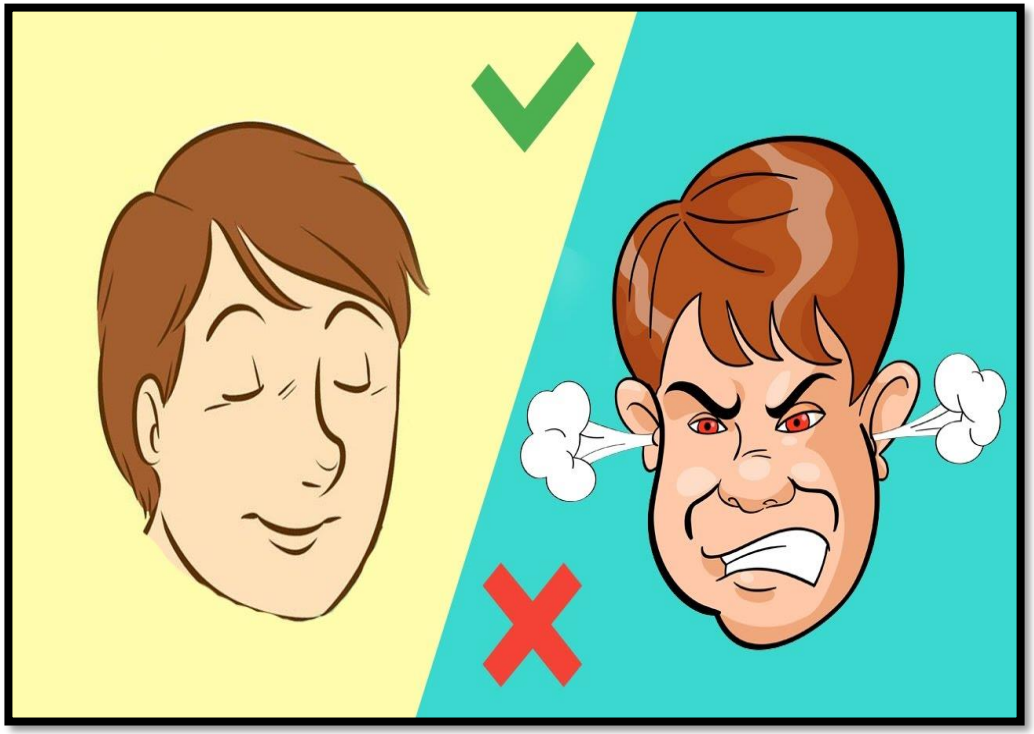

ولكن لو فرضنا شخصين، أحدهما يميل إلى الهدوء، بينما يتّصف الآخر بالحدّة وسرعة الانفعال، وأنّهما خضعا لظروف متشابهة تنمّي الميل إلى الحلم،

فإنّ الثاني ستخفّ حدَّته دون أن يصلَ إلى درجة الحلم التي وصل إليها الأول، وهذا معنى قول النبي ﷺ: « النّاسُ معادنُ كمعادنِ الفضّة والذهبِ، خِيَارُهم في الجاهلية خِيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا».

أناقش: قد يسوّغ بعض المجرمين جرائمهم، بأنهم مجبولون على الشرّ، ما رأيك في ذلك؟